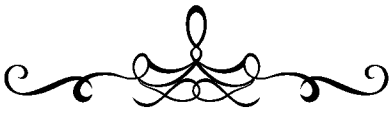

# "بيري رئيس" وأول خريطة لقارة "أمريكا"

يعتقد أن "بيري رئيس" قد ولد في "غاليبولي" بين عامي (١٤٦٥-١٤٧٠م)، واسمه الحقيقيّ "محي الدين بيري"، وهو ابن شقيق "كمال رئيس" أحد أشهر البحّارين آنذاك، وقائد من قادة الأسطول العثمانيّ في البحر المتوسط.

يقول شيخ الإسلام "ابن كمال" عن الأطفال الذين يولدون ويتربون في "غاليبولي":

- الأطفال المولدون في غاليبولي، يتربون كالتماسيح، فالمياه مكانهم والقوارب مِهَادهم.

وجد "بيري" نفسه بعد مرحلة الطفولة على متن سفائن عمّه "كمال رئيس"، ولما بلغ الحادية عشرة اشترك في رحلات عمّه كلّها على مدى أربعة عشر عامًا، وعاون عمّه "كمال رئيس" بين عامي (١٤٨٧-١٤٩٣م)

في نقل المسلمين واليهود بـ"غرناطة" الأسبانيّة إلى السواحل الشماليّة الإفريقيّة، فأمضى ستّ سنوات من عمره في القرصنة[٤٦] على السواحل الغربيّة للبحر المتوسط، وعدة جزر مثل "سيسليا"، و"صاردونيا"، و"قورسيكا"، وقاتل مع قراصنة الغرب آنذاك، واستولى على عدّة سُفُن غربيّة.

## استشهاد "كمال رئيس"

انفرد السلطان العثمانيّ الثامن "بايزيد الثاني" بالحكم على إثر وفاة شقيقه "جم (*Cem*)" عام (١٤٩٥م)، ولتقوية الأسطول العثمانيّ دعا السلطان "بايزيد الثاني" القادة الأتراك البحاريين إلى الانضمام بسفنهم وبحَّارتهم إلى القوات البحريّة العثمانيّة، فخاض "بيري" الصغير رِحلات البحر المتوسط مع عمّه "كمال رئيس" الذي التحقَ بالأسطول العثمانيّ، وكان أول ظهور له في تاريخ البحريّة العثمانيّة خلال معارك بحريّة دارت بين عامي (١٤٩٩-١٥٢٠م)، إذ كان رُبّانًا في تلك المعارك.

حُرِمَ بيري من أقوى عَضُد يدعمه حين فارق عمُّه "كمال رئيس" الحياة غريقًا إثر غرق سفينته بعاصفة عام (١٥١١م)، ولقد وصف البحّار الكبير "كمال رئيس" ذلك الحادث المأساويّ في كتابه بأبيات منها:

نَنْعَى كَمَالًا غَازِيًا فِي اللهِ سَارْ

صِرْنَا يَتَامَى بَعْدَهُ فِي كُلِّ دَارْ

(٤٦) كلمة القرصنة بجانب ما تحمله من معنى أعمال السرقة والنهب في البحار فهي تعني السفن التي تقوم بتعقب سفن العدو أثناء الحرب والاستيلاء عليها. محمد زكي بكالين، قاموس المصطلحات التاريخية العثماني، المجلد الثاني، ص ٢٩٦.

## خريطة العالم

جاءت وفاة "كمال رئيس" بغتةً، فكانت ضربةً شديدة المرارة لـ"بيري رئيس"، إلا أنّ تجارب ملاحيّة خَبرَها ومعلومات اكتسبها من العمل بجواره قد صقلته ومنحته خبرة كبيرة، وعندما رأى تزايُدَ صِلات الدولة العثمانيّة ببحار العالم المعروفة، شعر بالحاجة إلى خريطة للعالم ترشد رفقاء المهنة، فابتعد مدّة عن البحار، وانزوى في غاليبولي.

في عام (١٥١٣م) أعدّ خريطته الأولى للعالم، وذلك بعد أن رجع فيها إلى المصادر المتوفّرة حينذاك، وليس في أيدينا الآن منها إلا ما يتعلّق بـ"أمريكا"، وفي أثناء حملة السلطان "سليم الأول" على مصر سنة (١٥١٧م)، دُعِي "بيري رئيس" للعمل في الأسطول العثمانيّ قائدًا لإحدى الفِرق البحريّة، وشارك في فتح الإسكندريّة، ثمّ انفصل بفرقتِه عن الأسطول، ووصل عبر النيل إلى القاهرة، ورسم خريطةً لدلتا النيل، وأورد معلومات تاريخيّة وجغرافيّة مهمّة عن تلك المناطق.

بعد فتح مصر سنحت لـ"بيري رئيس" فرصة اللقاء الشخصيّ بالسلطان "سليم الأول"، فأهدى السلطانَ خريطة للعالم أعدّها قبل أربع سنوات، فاهتمّ بها السلطان اهتمامًا شديدًا، وجاء في رواية أنّ السلطان العثمانيّ نظر إلى الخريطة قائلًا:

- يا لَه من عالم صغير!

ثمّ شطرها نصفين وأضاف:

- ولسوف نُحكِم قبضتنا على شرقه!

## دِقّة "بيري رئيس"

يوضّح "بيري رئيس" في كتابه الشهير "كتاب البحريّة" أنّ رسمَ الخرائط عمل يتطلّب تحرّي الدقّة والعلم: ''ولا تظنَّ هذا العمل هيّنًا، بل إنّ فيه ما فيه من الدقّة'' كما أشار في الأبيات التالية إلى أن أبسط خطإٍ في عمل الخرائط يحول دون الاستفادة منها:

أمّا لو أصابها نقص قدر شعرة،

لعُدّت من سَقَط المتاع المبتذلِ(٤٧)

في إحدى ملاحظاته على خريطته، يبيّن رجوعه إلى أربع وثلاثين خريطة كي يتمكّن من رسمها، وأنّ تلك الخرائط كانت تحتوي على أسماء كثيرة جدًّا لبحّارة المسلمين.

يوضح "أوليا شلبي" -بعد مرور قرن من الزمان (القرن ١٧)- أنّ المشتغلين برسم الخرائط في إسطنبول يصل عددهم خمسة عشر شخصًا ويعملون في ثمانية ورش لإعداد الخرائط، وكان من بين هؤلاء من يجيد بعض اللغات لا سيّما اللاتينيّة، وقد رسموا خرائط جديدة بالاستعانة بآثار الباحثين القدامى وأطالسهم، ثمّ باعوها للبحّارة.

## رسوم "كولومبوس"

من ملاحظات "بيري رئيس" نعرف أنّه استفاد أثناء إعداده خريطته من رسوم لـ"كريستوف كولومبوس" مكتشف أمريكا، فالكاتب خلال حديثه في "كتاب البحريّة" عن اكتشاف "كولومبوس" "أنتيليا" يوضّح وجود رسم تخطيطيّ أعدّه "كولومبوس"، بقوله:

(٤٧) الأستاذ الدكتور عائشة عافت إنان، سيرة حياة بيري رئيس ومؤلفاته، أنقره ١٩٧٤م، ص ٢٦.

- وقد وصلت إلينا خريطته.

ووفقًا لما ورد إلينا من معلومات فإنّ نُسَخ الرسم التخطيطيّ المرسلة من "كولومبوس" إلى إسبانيا عام (١٤٩٨م) استخدمها كثير من البحارة دليلًا، إلا أنَّ تلك الرسوم كلّها قد اندرست فيما بعدُ، والوثيقة الوحيدة الأصليّة بين أيدينا اليوم هي خريطة رسمها "بيري رئيس" فالغالبيّة العظمى من الكتّاب الأجانب ترجّح أنّ هذا الأثر هو أكمل وثيقةٍ جغرافيّةٍ أعدّها تركي حتى الآن.

ورغم أنّ "بيري رئيس" رسم خريطةَ العالم كاملةً مستفيدًا من المصادر المتاحة إلا أنّ الجزء الذي في أيدينا لا يشير -مع الأسف- إلا إلى الشواطئ الشرقيّة لوسط أمريكا وجنوبها والمحيط الأطلسيّ وبعض السواحل الغربيّة لقارتي أوروبا وإفريقيا.

وحجم هذه الخريطة ٩٠×٦٥ سم، مرسومة بالألوان على جلد رقيق، ومزيّنة برسوم ملوّنة، علاوة على وجود لوحتين تساعدان في تحديد اتجاهات الرياح ومنابعها وهما مقسمتين إلى اثنين وثلاثين جزءًا إحداهما في شمال الخريطة والأخرى في جنوبها، وثلاث بُوصَلات، علاوةً على ذكر أوصاف ورسوم توضح النباتات والحيوانات الخاصّة بكلّ قارة أو جزيرة، وكُتبت على الأجزاء البحريّة أو البريّة للخريطة نصوص بعضها مصحوب بالرسوم.

لم يستفد بيري رئيس من خريطة "كولومبوس" فحسب، بل من خرائط البرتغاليّين المرسومة بعد تلك الخريطة التي رسمها "كولومبوس"، وحدّد

فـي خريطته نتائج توصّل إليها "فسـبوجي" و"سـوليس" بسـواحل أمريكا الجنوبيّة، وزاد عليها معلومات سطرها "كولومبوس".

## تخطيطٌ لا غُبارَ عليه

لـم يكن من الممكـن تحديد خطوط الطول والعـرض تحديدًا صائبًا إلا بواسـطة آلات حسّاسة، مثل: الكرونومترا والمساطر الخرائطية، وكان نقص تلك الأدوات آنذاك يصعّب من رسم الخرائط.

ولمـا كان الرصـد الفضائيّ يسـتغرق وقتًا طويلًا، لـم يكن من المتاح تحديد أماكن الجزر المكتشفة بتقنيّة سليمة، فخفيت تفصيلاتها الدقيقة.

كان رسـم السـواحل والخلجـان اعتباطيًّا بالمناقل حتـى ذلك الحين، ورغم تلك الأحوال الصعبة كلّها المحيطة بـ"بيري رئيس" إلا أنّه استطاع أن يحدّد مداخل السـواحل ومخارجها في مسـتوى مقارب لما هي عليه اليوم محدِثًـا تجديدًا مهمًّا في هذا المجال، حتى رسـم الأنهـار أظهر فيه نجاحًا بالمسـتوى نفسه، وما زال الهيدروغرافيا[٤٨] أو علم وصف المياه إلى اليوم يشير إلى منطقة صخريّة تحت البحر -اكتشفها "بيري رئيس"- بعلامة (+).

ولـو أنّ هنـاك عنصـرًا آخـر يثيـر الاهتمـام فـي خريطة العالـم لكان المسـطرة المرسـومة على الخريطـة؛ إذ يُرى عليها مسـطرتان، كلّ وحدة على المسـطرة التي تقـع في القسـم الكبير من الخريطة يعادل ثلاثين ميلًا بحريًّا، أما الوحدة في القسم الصغير فتعادل ستّة أميالٍ بحريّةٍ.

(٤٨) المظهر الهيدروغرافي: يسمى المظهر الهيدروغرافي لأيّة دولة بخريطة التوزيع الجغرافي للمجاري المائيّة باختلاف أنواعها وأشكالها، ويختلف هذا المظهر من منطقة إلى أخرى تبعًا لعدة عوامل من بينها المناخ والتضاريس وطبيعة التربة وطبيعة الغطاء النباتي.

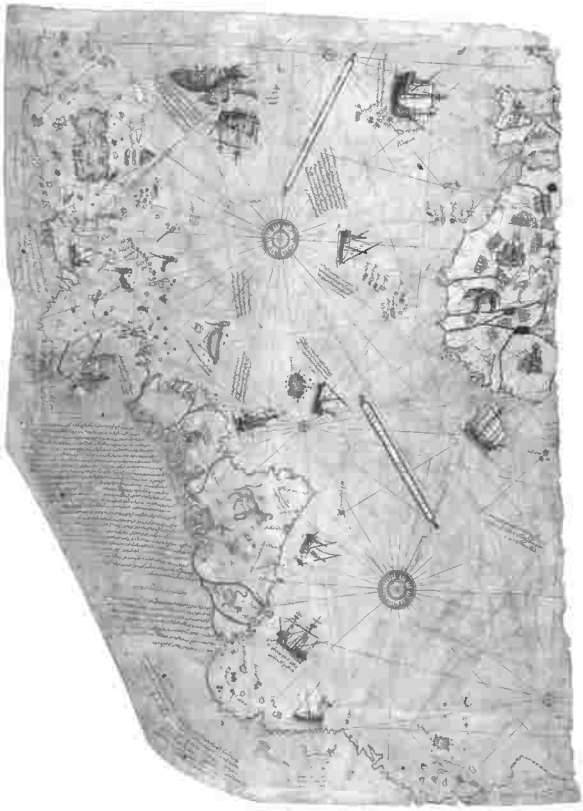

(خريطة "بيري رئيس" للعالم، تصف لنا الأجزاءُ المتبقيةُ منها الشـواطئَ الغربيةَ لإفريقيا
والشواطئَ الشرقيةَ لأمريكا الجنوبية)

إن البوصلاتِ والمقاييس تعتبران من أهمّ مقاييس تقنيّة كلّ خريطة، فخريطة العالم هذه لا تفتقر إلى شيءٍ ألبتّة من حيث التخطيط خاصةً أنّ دراسات كارتوغرافيّة قام بها "بيري رئيس" لا تختلف عمّا هو في وقتنا الحاضر(٤٩).

## خريطة تفوق أمثالها بكثير

توضّح لنا خريطة "بيري رئيس" المداخلَ والمخارج الساحليّة، والأجراف البحريّة والخلجان، والجُزُر، وبعض الأنهار الكبرى بالتفصيل، أمّا الخصائص الساحليّة خاصّةً فلا يُرى ثمّة فرق زائد حتّى ولو عند الموازنة مع الأطالس الحاليّة، فمثلًا الساحل الممتدّ من "سان توماس" حتى خليج "ماراجيبو" له المقياس نفسه موازنة بخرائط اليوم، ويمكن موازنة مستوى الدقّة والإحكام في سواحل أوروبا وإفريقيا بما هي عليه اليوم بالخرائط الحاليّة، إذ جال بيري رئيس بنفسه في تلك المنطقة، وحدّد -بطريقة صحيحة وبواسطة الرصد الفلكيّ- مكانَ عدّة نقاط مهمّة على البحر المتوسّط.

أظهر "بيري رئيس" بواسطة تلك الخريطة الأولى للعالم أولى المعطيات المتعلقة بـ"أمريكا" و"أنتيليا (*Antilia*)"، وحدّد بشكل صحيح يلفت الانتباه بُعد ذلك الساحل عن سواحل إفريقيا، إذ أمكن تحديد مقدار ذلك البعد بفضل المسطرتين اللتين وضعهما الأميرال على خريطته، وباختصارٍ: فإن قيمةَ هذه الخريطة تظهَرُ في تفوُّقِها الواضح والحقيقيّ على مثيلاتها في ذلك العصر.

(٤٩) ندوة بيري رئيس، الإدارة العامة للخرائط، ١٩٨٣م، ص ٢-٣٤.

كان من الطبيعيّ أن يستفيد "بيري رئيس" -الذي لم يَزُرْ أمريكا- من تجربة الرحالة الآخرين ورسومهم ومعلوماتهم وأَخْذِ رسوم "كولومبوس" بعين الاعتبار وهو يرسُم خريطَته، لكنّ الأخير لم يستطع أن يكشف عن سواحل أمريكا من "أورناق" حتى الجنوب فاكتشفها آخرون فيما بعد، وتلك الأجزاء -المرسومة على خارطة "بيري رئيس"- الساحليّة الممتدّة شمالًا من خليج "سانتوس" تتشابهُ مع نظيراتها بالخرائط الحديثة بدرجة لافتة للنظر.(٥٠)

## خريطة "كولومبوس".

رغم أن خريطة "جان سفرزون (*Jean Severzoon*)" طُبعت في "أمستردام" عام (١٥٢٠م)، ورُسمت بعد سبع سنوات من خريطة "بيري رئيس"، إلا أنه لا يمكن ألبتّة المقارنة بين الخريطتين وذلك لوجود الفارق الكبير في المساحات في كلٍّ من قارات إفريقيا وأوروبا وحتى أمريكا، فمثلًا القارّة المشار إليها بـ"أمريكا" تبدو في خارطة "جان سفرزون" على غير الواقع الذي نراه اليوم تمامًا حيث تشبه قرن الثور وتبدو متاخمةً لقارّة إفريقيا، أمّا "أنتيليا" فلا أثر لها ألبتّة.

لو كان "كولومبوس" قد رسمَ خريطة، لاستفاد منها سفرزون أيضًا، ولم يكن ليرسم أمريكا على هذا الشكل غير المقبول، ومثل هؤلاء الأشخاص الذين يسلّمون بصحّة كلّ ما يسمعونه؛ يقومون برسم الخرائط بشكلٍ خاطئٍ تمامًا، في حين أنّ بيري رئيس رسم خريطته بإتقانٍ ونجاحٍ يستحقّ لأجله كلَّ الاحترام والتقدير، مع العِلم أنه لم يذهب إلى أمريكا بنفسه.

(٥٠) ندوة بيري رئيس، المصدر السابق، ص ٢-٣٦

إنّ رسـمَ "بيري رئيس" أدقّ الخرائـط وأصحّها موازنةً بعصره -وفيها أماكن لم يرها هو نفسـه ولم يذهب إليها- ووضعَه إيّاها بين أيدي العالم لهو مفخرةٌ بحقّ، لا للبحريّة التركية فحسب، بل للمعارف العالميّة أجمع وعلمه(٥١).

## "كِتَاب البحريّة"

كان عهـد السـلطان "سـليمان القانونـيّ" يتميز في تحقيـق الفتوحات العظيمـة في الدولـة العثمانيّة، إذ تولى العرش عام (١٥٢٠م)، وبعد ثلاث سـنوات أمـر بفتـح "رودوس"، وشـارك "بيـري رئيس" في تلـك الحملة العظيمة.

في أثناء السفر إلى مصر عام (١٥٢٤م)، تعرضت سفينة "بيري رئيس" -التي كانت تقوم بإرشـاد سـفينة الصدر الأعظم "المقبول إبراهيم باشا"- لعاصفة كبيرة في البحر المتوسط، ولم تستطـع أن تواصل سيرَها، فاضطرَّ أن يلجأ إلى "رودس".

يصف "بيري رئيس" تلك الواقعة في الجزء الأخير من كتابه بقوله:

كنتُ أظنّ أنّ البحر تحوّل إلى طوفان نوح عليه السلام
لو أنّك كنت هناك لَصَدَّقت قولي.

وجـد "بيري رئيس" في تلك الرحلة فرصة للتعرُّف إلى إبراهيم باشـا عـن كثب، وقد تعجب الصدر الأعظم بقـدرة الأمير على الإبحار وقدرته على التأقلم والتناسـب مـع شـتى الظروف في البحر بمساعدة ملاحظات كتبها من قبل، فأوصاه إبراهيم باشا بتنسيقها، وتحويلها إلى كتاب.

(٥١) ندوة بيري رئيس، المصدر السابق، ص ٢-٣٧.

ألحق "بيري" تلك الواقعة بنهاية كتابه، وذكر أن "إبراهيم باشا" قال له:

اجمع هذه الأوراق واجعل منها كتابًا
لتكون للقارئين دليلًا ومرشدًا
ولا تتوانَ في جمعها وتصحيحها
لنقدمها لسلطاننا الأعظم.

أثارت تلك الكلمات حماسة "بيري"، فعاد إلى غاليبولي، وأكمل كتابه، وقدّمه إلى السلطان "سليمان" بواسطة إبراهيم باشا.

يتناول "كتاب البحريّة" بصفة أساسيّة سواحل بحري "إيجه" و"البحر المتوسط" وجزرهما، حيث تجوّل "بيري رئيس" بسواحل إيجه والبحر المتوسط بدءًا من "جناق قلعه"، وسنحت له فرصة الاكتشاف في كلّ ميناء من موانئ تلك السواحل، فجمّع ملاحظاته، علاوة على جمعه معلومات -من حيث التاريخ والجغرافية والملاحة البحريّة- عن أحوال مناطق تجوّل بها قديمًا، ودوَّن مراقباته على شكل ملاحظات واعتمد عليها في تدوين كتابه، ورسم في كلّ قسم من أقسام كتابه الخرائط المتعلّقة بموضوعه عام (١٥٢١م).

رصد "بيري" في ذلك الكتاب كلّ معلومة رآها، ودوّنها بدقّةٍ وصدقٍ بالغَين، وأشار أنّ المعلومة إذا لم تدوّن فسوف يطويها النسيان:

"أيّة معلومةٍ بلا كتابةٍ تُنسى حتمًا، ويجبُ تدوينُها فورًا، لذا كنت أكتب ما أراه؛ فكنت الكاتب والبحّار في نفس الوقت!".

كان هذا الكتاب دليلًا بحريًّا، تتبّع فيه بيري رئيس السواحل المهمّة، ورسم لكلّ مكانٍ خريطةً كبيرةً توضح معالمه، وأوضح المعلومات

اللازمة للملاحة البحريّة على الخريطة على شكل ملاحظات مختصرة، حتى صار الكتاب مرشدًا بحريًّا من جهة، وبورتولان[٥٢]، أو: أحدث تقنيّة للخرائط في عصره من جهة أخرى، وقد احتوى الكتاب على اثنتين وعشرين ومائتي خريطة، فهو أثرٌ ضخمٌ مكوّنٌ من ثمانٍ وخمسين وثمانمائة صفحة كبيرة.

من المعروف وجود نسخ كثيرة لكتاب البحريّة في مكتبات العالم، وتحتوي مكتبات إسطنبول على تسع وعشرين نسخة منه.

## خريطة أمريكا الشماليّة

رسم "بيري رئيس" خريطة العالم الثانية عام (١٥٢٨م) بعد مرور خمسة عشر عامًا على خريطته الأولى، وقد ترك عليها توقيعه كما فعل في الأولى، وبكلّ أسف لم يصل إلينا من تلك الخريطة إلا الجزء الأيسر العلويّ منها، ونجد في الخريطة زخارف ملوّنة في حوافها، وأبعاد الخريطة ٦٨×٦٩سم.

من حيث تقنيّة الخريطة، يُعدّ هذا العمل أحدث نموذج للخرائط البحريّة، حيث يحتوي على كثير من أسماء الرياح واتجاهاتها، وهي أكبر من تلك المرسومة عام (١٥١٣م)، والمنطقة التي تغطيها الخريطة لدينا هي شمال المحيط الأطلسيّ وسواحل أمريكا الشماليّة والوسطى المكتشفة حديثًا آنذاك، وقد رُسم أيضًا فيها "مدار السرطان" خلافًا لسابقتها.

(٥٢) بورتولان: هي الخرائط البحرية المكتوبة بخط اليد، والتي تحتوي على معلومات عن الموانئ والسواحل، وكانت هذه الخرائط تُستَخدم في أوروبا ما بين القرنين الرابع عشر والخامس عشر ميلادية.

لم يرسم "بيري رئيس" في تلك الخريطة الأماكن التي لم يتمّ اكتشافها آنذاك، وترك مكانها خاليًا، ويشير رسّام الخريطة الشهير بيري رئيس بذلك إلى أنه يتصرّف وفق قواعد الأساليب العلميّة، لذا لم يرسم تلك المناطق، والخريطة الثانية لـ"بيري رئيس" تحمل قيمةً عظيمة لزمانها وللحياة العلميّة التركية أيضًا(٥٣).

قدّم "بيري رئيس" خريطته تلك لحاكم عصره السلطان "سليمان القانونيّ"، فحظيت عنده باهتمام عظيم، وهنأه وأعرب عن تقديره.

## فتح قلعة "عدن"

لا نصادف في المصادر أية معلومة عن حقبة استمرت تسعة عشر عامًا بدءًا من عام (١٥٢٨م) وقت أن قدّم "بيري رئيس" خريطته الثانية إلى السلطان حتى عام (١٥٤٧م) وقت تعيينه رُبّان الأسطول الهنديّ.

كانت عدن هي القاعدة العثمانيّة الوحيدة على ساحل المحيط الهنديّ، وعام (١٥٤٦م) استولى عليها أحد الرؤساء العرب المحليّين، فقرّرت الدولة العثمانيّة استردادها منه، وقامت بتعيين أشخاص أكثر تأهيلًا لمنصبي أمير أمراء اليمن وقيادة أسطول الهند، فتولّى بيري رئيس منصب رُبّان الهند وعمرُه آنذاك ثمانون عامًا، وانطلق "بيري رئيس" ليستردّ عدن بأسطول قوامه ستّون سفينة من مدينة "السويس" في التاسع والعشرين من أكتوبر/تشرين الأول عام (١٥٤٧م)، ووصل مشارف عدن في التاسع عشر من يناير/كانون الثاني عام (١٥٤٩م)، وفي أعقاب معارك

(٥٣) الأستاذ الدكتور عائشة عافت إنان، المصدر السابق، ص ٣٩.

شديدة نجح في استرداد القلعة في الثالث من فبراير/شباط عام (١٥٤٩م)، ووصل خبر هذا الفتح العظيم إلى مصر فورًا، ومنها إلى إسطنبول، فسُرّ الجنود والبحّارة المشاركون في تلك المعارك بالمكافآت المتنوّعة على وفق رُتبهم.

## محاصرة قلعة "هرمز"

في عامَي (١٥٥٠-١٥٥١م) كان البرتغاليّون نشطاء جدًّا في الخليج العربي، وتوغلوا حتى وصلوا إلى "البحرين" الخاضعة للنفوذ العثمانيّ، واستولوا على قلعة "القطيف" بالساحل الغربيّ للخليج، علاوةً على ذلك قاموا بتحريض الأهالي في المنطقة بالتمرّد على الدولة العثمانيّة، وحينما قرّرت الدولة العثمانيّة إخراجهم من هذه المنطقة، توجّه "بيري رئيس" -بعد ثلاث سنوات- في إبريل/نيسان عام (١٥٥٢م) من السويس بأسطول قوامه ثلاثون سفينة، وكان سيمرّ -طبقًا للأمر الصادر إليه- بجزر البحرين بعد أن يستولي على قلعة هرمز، ويفتح تلك الجزر أيضًا.

كان مضيق هرمز مركزًا مهمًّا في التجارة بين بلاد الهند ودول غرب آسيا، لذا كان أحد موانئ المحيط الهنديّ التي لا يمكن التخلي عنها.

بعد أن استولى "بيري رئيس" على قلعة "مسقط" في السادس من نوفمبر/تشرين الثاني عام (١٥٥٢م) أبحر قاصدًا مضيقَ هرمز، وحاصره بأسطولٍ يتألّف من ثمانٍ وعشرين سفينة وخمسين وثمانمائة جنديًّا، واستولى على مضيق هرمز بالإضافة إلى مجموعة الجزر الصغيرة المحيطة به، لكن القلق ساوره من مقاومة القلعة الداخليّة المستمرّة طويلًا، وانتابته مخاوف من حدوث هجمة مفاجئة من قبل أحد أساطيل

البرتغال التي تتَّسِمُ بالقدرة الفائقة، فرفع الحصار وانسحب إلى خليج البصرة في خطوة صائبة.

فعندما وصل الأسطول العثماني إلى البصرة كان هناك أسطولٌ برتغاليٌّ قويٌّ قد وصل إلى مشارف مضيق هرمز، وبعد مشادّة كلاميّة مع "قوباد باشا" أمير البصرة ترك "بيري رئيس" أسطوله هناك، وأخذ ثلاث سفن وأبحر مرّةً أخرى صوب مدينة السويس.

## وفاة "بيري رئيس"

قدم "بيري رئيس" إلى السويس أولًا، ومنها إلى القاهرة برًّا، ولم يُحسِن "داود باشا" أمير مصر استقبالَه، حيث عاملَه على أنه قائدٌ تخلّى عن أسطولِه في البصرة، وترَكَ جيشَه وحيدًا في ميدان الحرب، فتمّت إدانته وحبسه، وأعدّ كلٌّ من "داود" باشا و"قوباد" باشا -أمير البصرة- تقريرًا ضدّ "بيري رئيس" وأرسلاه إلى إسطنبول، وفي النهاية أُدين سياسيًّا، وأُعدم بـ"مصر" عام (١٥٥٤م)، وقد تجاوز الثمانين عامًا.

ثمّة مزاعم متنوعة فيما يخصّ قتله، لكن "الكاتب شلبي" -أحد علمائنا الكبار- يقرّر حكمًا منطقيًّا بشأن "بيري"، ويعلّق بتعبيره التالي على الواقعة في أثره الشهير الذي يُعَدُّ أوّلَ تاريخٍ بحريٍّ:

> فيما بعد اتَّضح للعِيان أنّ إعدام "بيري رئيس" وقع ظلمًا، لعدّة أسبابٍ، أهمُّها أنه لم يدفع رشوة لـ"قوباد" باشا، ولقد كان "بيري رئيس" إنسانًا قلّما يجود الزمان بمثله، راح ضحيّة لغدر الزمان![٥٤].

(٥٤) جنجيز أورخونلي، القيادة البحرية في الهند وبيري رئيس، مجلة بلتن ١٩٧٠م، المجلد ٣٤، العدد ١٣٤، ص ٢٣٦-٢٤٧.

إنـه المعمار العبقـريّ، الذي ارتـقى بفنّ العِمـارة العثمانيّة إلى عصرها الذهبيّ، وحفر اسمَه على نحو أربعمائة عملٍ فنّيٍ هندسيّ.

إنـه مـن بنـى سـتّةً وثلاثين ومائـة جامعٍ ومسـجد، وسـبعًا وخمسـين مدرسـةً، عـلاوة علـى الأضرحـة والمقـارئ والمستشـفيات والقناطـر والسـدود وجسـور مائية والحمّامات والجسـور والمسـتودعات والأَنْزَال والقصور والتكايا...

إنـه المهندس العظيم الذي حقّق أمنيته حينما أبدعَ قبّة «السـليميّة» متفوّقًا بها على قبّة «آيا صوفيا» تفوّقًا باهرًا..

إنه الفنانُ والمبدِع العظيم «سنان»

كبيرُ المعماريّين العالميّين.